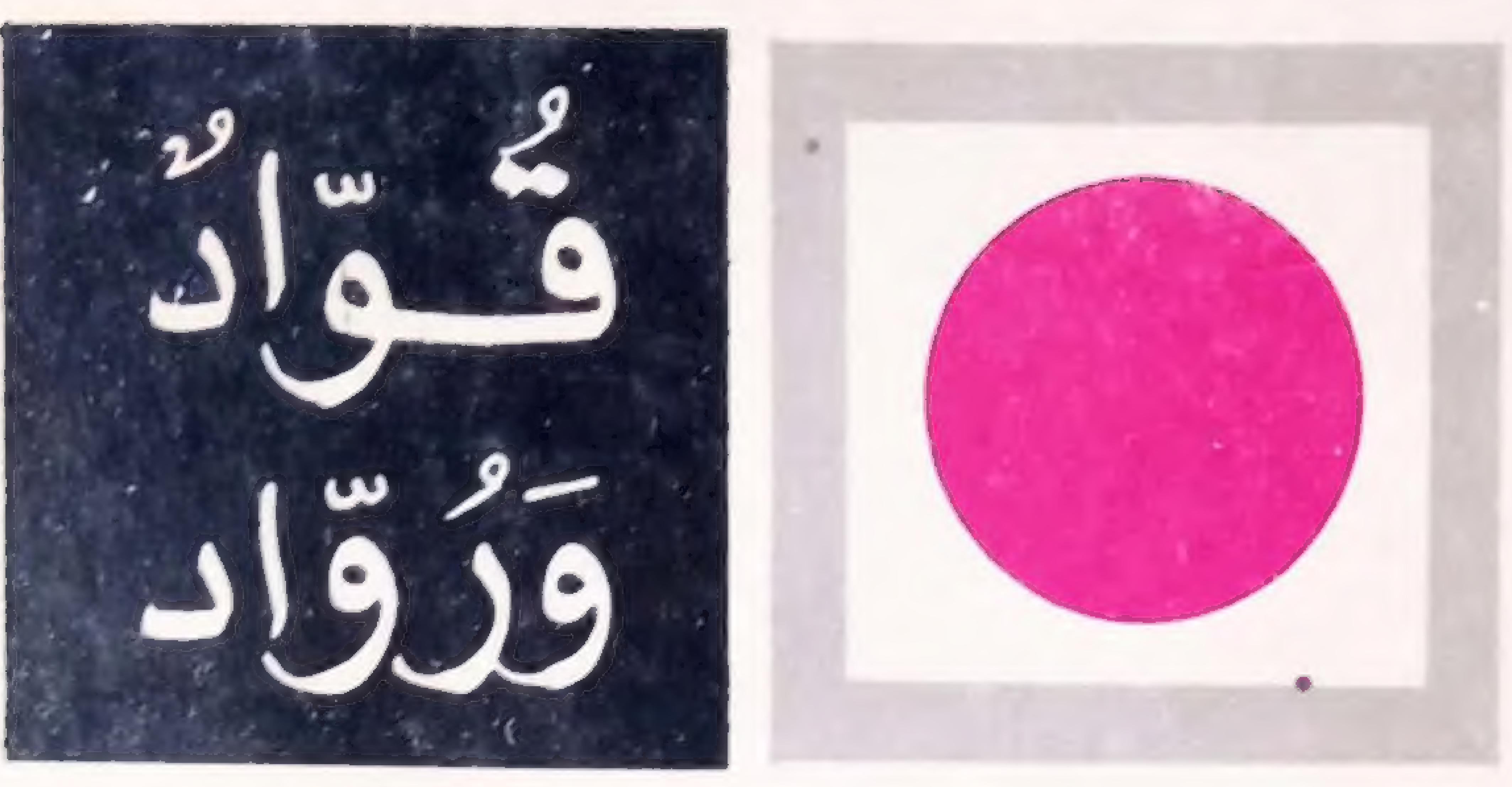


• ثقافة لجميع الأولاد •



جمال الدين الأفغاني

وصفى آل وصفى • كامل حمادة



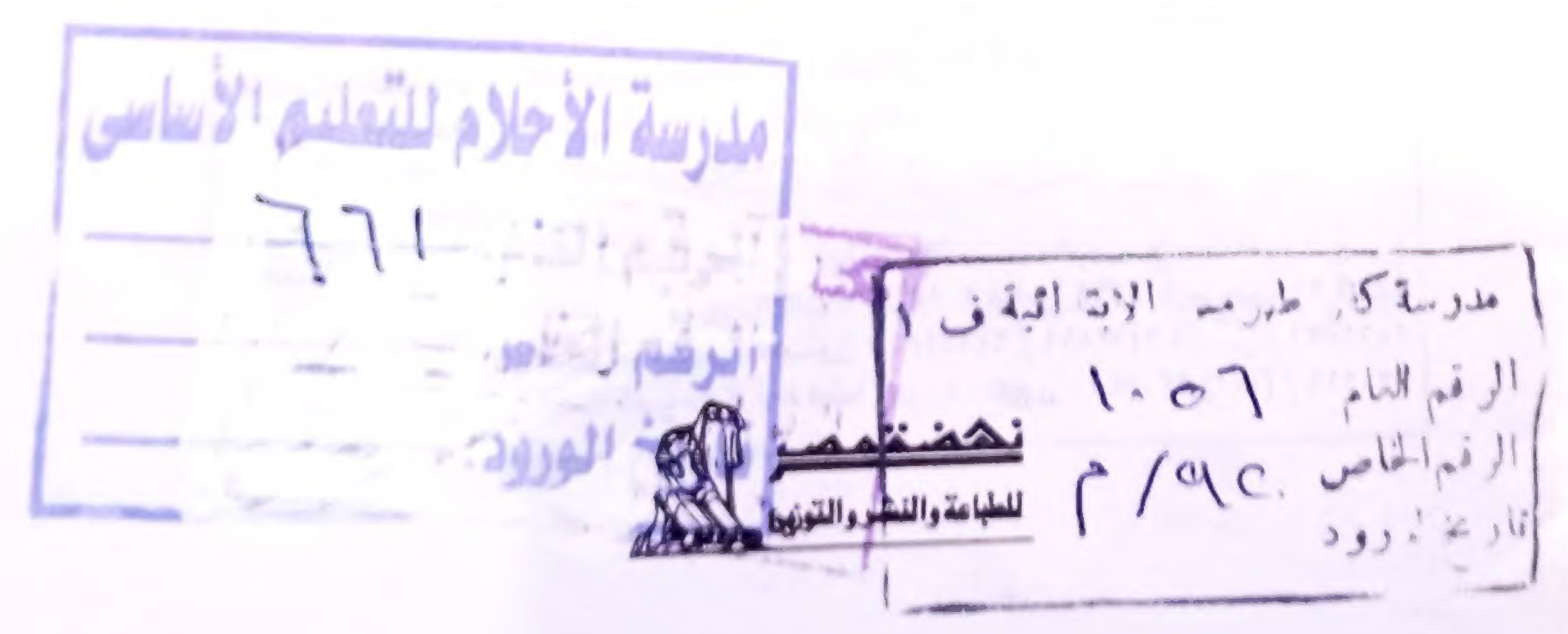
قُوّادٌ وَرُوّاد

المُصلِح

السَّيِّد جمال الدِّين الأفغاني

للأستاذين

وصفي آل وصفي — كامل حماده



(١)

سأَلتْ « علياءُ » ابْنَ عَمِّها بِرِقَّةٍ وهي تَجْلِس :

- كَيْفَ حالُ جَدِّنا العَزِيزِ اليَوْمَ يا « عرَبِي » ؟

فابْتَسَمَ عرَبِي و أَجابَها :

- إنَّ صِحَّتَهُ تتَحَسَّنُ باستِمْرَار ، وهو اليَوْمَ مَشْغُولٌ بمَجْمُوعَةٍ مِنَ الكُتُبِ وضَعَها بِجَانِبِهِ فَوْقَ الفِرَاشِ وراح يُطَالِعُها الوَاحِدَ بَعْدَ الآخَر . .

وسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ أَضافَ بسرعة :

- وقَدْ لمَحْتُ على غِلَافٍ واحِدٍ مِنها صُورَةً لِشَيْخٍ مُعَمَّمٍ بِعِمَامَةٍ ذاتِ شَكْلٍ غَرِيب . . أَثَارَتْ شَوْقِي لِمَعْرِفَةِ مابِالكِتَاب !

وتَعَجَّبَتْ علْيَاءُ مُدَاعِبَةً :

- و كَيْفَ استَطَعْتَ أَنْ تَبْتَعِدَعن تِلْكَ الكُتُبِ ، وهي قَرِيبَةٌ مِنْكَ إلى هذا الحَد ؟ !

فاعترفَ عربى وهو يفركُ يديه ويبتسم :

ـ الواقعُ أنّى كُنتُ على وشْكِ أنْ أشاركَ جدّى

فى قراءتها ، ثُمَّ إذا أنت تُقبلين !

عندئذٍ وثبتْ علياءُ تقولُ بحماسة :

ـ هيَّا بنا إذَنْ ، فذلكَ الكِتابُ الّذى يَحملُ

غِلافُهُ صورةَ الشَّيخِ المُعمَّمِ لابُدَّ مِنْ أنَّهُ يتحدَّثُ عن

شَخصيّةٍ عَظيمَةٍ . . وأنتَ لايُمكنُك أنْ تبتعدَ عن

الشَّخْصيّاتِ العَظيمَةِ طويلًا !

ومَنْ يَدرى ؟ ربما صِرتَ أنتَ نفسُكَ واحدًا مِن

الشَّخصيّاتِ العَظيمَةِ يومًا ما !

* * *

أغلَقَ الجدُّ الكِتابَ والتفتَ يُرحّبُ بعربى

وعلياءَ ، فأسرعتْ علياءُ تقولُ له :

ـ لا ياجَدّى ! لا تُغلِقِ الكِتابَ ، فابنُ عَمّى

العَزِيزُ قَدِ اسْتَعَدَّ لِسَماعِ ماسَوْفَ تُطالِعُهُ لَنا مِن صَفَحاتِه ! وأَغْلَبُ ظَنّى أَنَّهُ يُخْفِى فى جَيْبِهِ وَرَقًا وقَلَمًا لِيُلَخِّصَ مايَسْمَعُ ! !

ابْتَسَمَ الجَدُّ وظَهَرَتْ على وَجْهِهِ السَّعادَةُ وهو يَدْعُو حَفِيدَيْهِ للجُلُوسِ قَرِيبًا مِنْه . . .

ورَفَعَ الكِتابَ يَتَأَمَّلُهُ . . فَهَمَسَتْ عَلْيَاءُ لِابْنِ عَمِّها وهى تُشِيرُ إلى الغِلافِ :

ـ عِمامَةٌ غَرِيبَةٌ حَقًّا !

وسَمِعَها الجَدُّ فقال :

ـ إنَّهُ « السَّيِّدُ جَمالُ الدِّينِ الأَفْغانى » ياعَلْيَاءُ ، وقد كان يَعْقِدُ عِمامَتَهُ على طَرِيقَةِ عُلَماءِ الأَتْراكِ فى « الآسْتانَةِ » عاصِمَةِ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ . .

أَخْرَجَ عَرَبِى مِن جَيْبِهِ وَرَقًا وقَلَمًا فابْتَسَمَتْ عَلْيَاءُ . .

لكِنَّها احتَرَمتْ حُبَّهُ للمَعْرِفَةِ فلَمْ تَضْحَكْ . .

وقالَ عرَبِى مُسْتَوْضِحًا :

ـ إنَّ لقَبَ السَّيِّدِ جمالِ الدِّينِ يدُلُّ على أنَّهُ مِنْ بِلَادِ الأَفْغَان . .

ومَعَ ذلك فقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا عن كِفَاحِهِ فى مِصْرَ ، ضِدَّ التَّدَخُّلِ الأَجْنَبِيِّ واسْتِبْدَادِ حاكِمِهَا فى ذَلِكَ الوَقْتِ « الخِدِيوِى إِسْماعِيل » . .

فَهَزَّ الجَدُّ رأسَهُ وأجَاب :

ـ هذا صَحِيح ، فالأَفْغَانِىُّ جاءَ إلى مِصْرَ وعاشَ فيها ثَمَانِى سَنَوَات . .

وأغْمَضَ عينَيْهِ لحظَاتٍ ، ثم فتَحَهُما وقال :

ـ الأَفْضَلُ أَنْ نَبْدأَ قِصَّةَ الأَفْغَانِىِّ مِنْ أَوَّلِهَا . .

وسأَلَتْهُ علْياءُ باهْتِمَام :

ـ أَلا يُتْعِبُكَ ذلك ياجَدِّى ؟

فَرَدَّ فى الحالِ قائِلًا :

ـ لا . . أَبَدًا ياعلْيَاءُ يابِنْتِى . .

إِنَّ الكلامَ عَنِ السَّيِّدِ الأَفْغَانِىِّ وأَمْثَالِهِ مِنَ المُناضِلِينَ الأَقْوِيَاءِ يَجْعَلُنِى أُحِسُّ القُوَّةَ أنا أَيْضًا !

(٢)

قالَ الجَدُّ وهو يَمْسَحُ كفَّهُ على غِلافِ الكتَاب :

ـ وُلِدَ جمالُ الدِّينِ فى أُسْرَةٍ تَنْتَسِبُ إلى « الإمامِ الحُسَيْنِ بنِ علِيِّ بْنِ أَبى طالِب » . .

ولذلك فإنَّ كَلمَةَ « السَّيِّد » تَسْبقُ اسْمَهُ علامَةً علَى نَسَبِهِ الشَّرِيف . .

وكانَ مَوْلِدُهُ بقَرْيَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ عن مَدِينَةِ « كابُلَ » ، عاصِمَةِ « أَفْغانِسْتَانَ » الواقِعَةِ شمَالِيَّ غَرْب « الهِنْد » ، ثُمَّ انْتَقَلَ مَعَ أُسْرَتِهِ إلى العاصِمَةِ وهو فى الثَّامِنَةِ من عُمْرِه . . فلَمْ تَمْضِ عَشْرُ سَنَواتٍ حتى كانَ قد أَتَمَّ دِرَاسَةَ الكَثِيرِ من عُلُومِ اللُّغَةِ والتَّارِيخ والدِّين والمَنْطِقِ والرِّياضَةِ والفَلَكِ والطِّب !

وهَتَفَتْ عَلْيَاءُ غَيْرَ مُصَدِّقَة :

أَتَمَّ دراسَةَ ذلكَ كُلِّه وهو فى الثَّامِنَةَ عَشْرَة ؟ !

فأَضافَ الجدُّ بسُرْعَة وهو يَضْحَك :

– وهو لم يَكْتَفِ بما حصَّلَهُ فى مدينَةِ كابُلَ ، بل سافَرَ إلى الهِنْدِ حيثُ أَقامَ أَكْثَرَ من عام ٍ يَدْرُسُ العُلُومَ الحديثَةَ علَى الطَّرِيقَةِ الأَوْرُبِّيَّة . .

ثُمَّ أَمْضَى سنَةً أُخْرَى فى التَّنَقُّلِ بَيْنَ المُدُنِ المُخْتَلِفَةِ ، لِيَزِيدَ مَعْلُوماتِه بالمُشَاهَدَةِ ، ويَعْرِفَ آلامَ النَّاسِ وآمالَهُم !

وبَعْدَ أَنْ أَدَّى فَرِيضَةَ الحَجِّ وعاشَ عامًا فى « الحجَاز » ، عادَ إلى بلادِهِ لِيُرَافِقَ أَمِيرَهَا فى حَمْلَة حرْبِيَّة لإِخْضَاع إِحْدَى المُدُنِ التَّابعَةِ له . .

وهُنَا توقَّفَ عربى عن كِتَابَةِ مُلاحَظَاتِهِ لِيَسْأَلَ وقد غَلَبَتْهُ الدَّهْشَة :

– هَلِ اشْتَرَكَ الأَفْغَانِىُّ حقًّا فى حَمْلَة حَرْبِيَّة ؟ !

فابْتَسَمَ الجَد و أجاب :

— إنَّ تاريخَ الأفغانىِّ حافِلٌ بالأحْداثِ ياعربى ، وإذا كانَ اشتراكُهُ فى حَمْلَةٍ حَرْبيَّةٍ يُدْهِشُكَ . . فماذا تقولُ إذا عرفتَ أنَّهُ تولَّى وزارةَ الحربيَّةِ فى « إيرانَ » الَّتى دعاهُ إليْها حاكِمُها « الشَّاه » بعْدَ ذلِكَ بسنواتٍ ؟ !

وقبلَ أنْ يردَّ عربى وصلَ الجدُّ حديثَهُ قائلًا :

— المُهمُّ أنَّ تلْكَ الحَمْلَةَ ، الَّتى ساهمَ فيها وهُوَ شابٌّ ، غرستْ فى طِباعِهِ الجُرأةَ والإقْدامَ والثَّباتَ فى وجْهِ المصاعِبِ !

رجعَ الجدُّ إلى واحِدٍ منَ الكُتُبِ الموضوعةِ بجانِبِهِ ، ثُمَّ استأنفَ كلامَهُ :

— كان الإنجليزُ يحتلُّونَ الهندَ ويتطلَّعونَ إلى السَّيْطرةِ على البِلادِ المُجاورةِ . .

فلمَّا تُوفِّىَ أميرُ أفْغانِسْتان ، بدءُوا يدُسُّونَ

بَيْنَ أَولادِهِ لِيَتَنَازَعَ الإِخْوَةُ ويتَحَارَبُوا ؛ وبذَلِكَ يتوَصَّلُونَ هُمْ إلى فَرْضِ سُلْطَانِهِمْ على أَفغَانِسْتَان ، عَنْ طَرِيقِ الأَخِ الَّـذِى يَسْتَعِينُ بِهِمْ ويُنَفِّذُ مَطَالِبَهُمْ !

وانْضَمَّ الأَفْغَانِىُّ إلى الأَميرِ الَّذِى رَفَضَ التَّعاوُنَ مَعَ الإِنْجِلِيزِ . وأَصبَحَ وَزِيرَهُ الأَوَّل . .

غَيْرَ أَنَّ هذا الأَمِيرَ الذى انتصر فى البدايِة لم يَلْبَثْ أَنَ هُزِمَ وهَرَبَ إلى إيرَانَ ، وانْفَرَدَ بالحُكْمِ الأَخُ الَّذِى خَضَعَ للإِنْجِلِيزِ . .

ومَعَ أَنَّ الأَمِيرَ المُنْتَصِرَ لم يَجْرُؤْ عَلَى إِيذَاءِ السَّيِّدِ جمالِ الدِّينِ علانِيَةً ، خَوْفًا من نُفُوذِ عائِلَتِهِ الشَّرِيفَة ، إِلَّا أَنَّهُ راحَ يُدَبِّرُ له مُؤَامَرَةً لِيَتَخَلَّصَ منه !

وما إنْ شَعَرَ الأفْغَانِيُّ بذَلِكَ حتَّى سافَرَ إلى الهِنْدِ ،
وَمِنْهَا نقَلَهُ الإنجليزُ إلى مِصْر . .
لكنَّ إقامَتَهُ لَمْ تَطُلْ بِمِصْرَ ، هذِهِ المرَّة !

(٣)

اسْتَرَاحَ الجَدُّ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْوِى جُزْءًا آخَرَ مِنْ قِصَّةِ الأَفْغَانِىِّ . . قال :

ـ كانَ الإِنْجِلِيزُ لَهُ بالمِرْصَادِ فى الهِنْد . . فما كاد يَتَّصِلُ بالعُلَمَاءِ والزُّعماءِ حتَّى نَقَلَتْهُ الحكُومَةُ على أَحَدِ مراكِبِهَا إلى مدينَةِ « السويَس » . .

وتعجَّبَتْ علْياءُ قائِلَةً :

ـ ولَـكِنْ كَيْفَ ياجَدِّى ؟ أَلَيْسَ فى الهِنْد مِئَاتُ المَلَايِينِ . . فـكَيْفَ يُخْضِعُ الإِنْجِلِيزُ كُلَّ هؤُلاءِ ، ثُمَّ يَخْشَوْنَ الأَفْغَانِىَّ وهو فَرْدٌ واحد ؟ !

فعقَّبَ الجَدُّ وهو يَبْتَسِم :

ـ ذلك الفَرْدُ الواحدُ ياعلْيَاءُ ، كانَ يَمْلِكُ صِفَاتِ الزَّعامَةِ ، فأَثَارَ حَمَاسَةَ الهُنُودِ وحرَّضَهُمْ على طَلَبِ الاسْتِقْلَال . وهُنَاكَ مَنْ يَرَى أَنَّ تَأْثِيرَ الأَفْغَانِىِّ فى

الهند كان مقدمة لكفاح «غاندى» الزعيم الهندى الذى نالت بلاده استقلالها على يديه !

ثم عاد الجد إلى تسلسل الأحداث فقال :

— ومن السويس اتجه الأفغانى إلى القاهرة ، حيث التف حوله طالبو العلم ، فأقام أربعين يوما يدرس العلوم الحديثة كالفلسفة التى كانت تعتبر أفكارا جديدة بالنسبة لكثيرين من علماء ذلك العصر . فهاجم بعضهم الأفغانى ، زاعمين أن مايدرسه خطر على العقيدة الدينية . . ونسوا أن الدين الإسلامى يدعو إلى العلم والمعرفة !

وسرعان مارحل إلى الآستانة . .

ولم تطل إقامته بالآستانة أيضا ! !

فى البداية رحبت الحكومة العثمانية بالأفغانى ، وعينته عضوا فى «مجلس المعارف» . فلما قام بواجبه

وطالَبَ بإصْلاحِ مناهِجِ التَّعْليمِ ، اخْتلف معه المُوظَّفُون الفاسِدُونَ . كان هدَفُهُ أَنْ يُربِّى جيلاً جَديداً مِنَ الشَّباب يَخْدمُ أُمَّتَهُ ويَعْمَلُ على تَقَدُّمِهَا ، وكانوا الفاسِدُونَ يخَافُونَ أَنْ يَضُرَّ التَقَدُّمُ مَصَالِحهِمْ . . فحاربوه !

ولم تلبث الحكومةُ أَنْ أَصدرتْ أَمرها إليه بمغادرةِ الآستانَةِ ، وفى الوقْتِ نَفْسِهِ كانْ أَصْدقَاؤُهُ يُلِحُّونَ علَيْهِ أَنْ يَحْضُرَ إلى مِصْرَ فعَمِلَ بر أيِهِمْ وعادَ إليْهَا عام ١٨٧١ . .

* * *

التَفَتَ الجَدُّ إلى عرَبِى وقالَ له :

ـ انتبه لهذا الجُزْءِ من تارِيخِ الأَفْغَانِىِّ ياعرَبى ، فسوف يَنْفعكَ مابهِ من مَعْلُومات ،عِنْدمَا تَقْرأ عن « عرابى » و « مُحمد عَبْده » و « مُصْطفَى كامِل » و « عَبْدِ اللهِ النَّديم » و « سعدِ زَغْلُول » وغَيْرهِمْ من

أَبْطَالِ مِصْرَ فى النِّصْفِ الأَخِيرِ مِنَ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ و أَوائِلِ القَرْنِ العِشْرِين . .

فهَزَّ عربى رأسَهُ و أَصْغَى بِاهْتِمَام إلى جَدِّهِ الَّذِى وَصَلَ كَلامَهُ قائِلًا :

- جاءَ السَّيِّدُ جمالُ الدِّينِ الأَفْغانِىُّ إلى مِصْرَ وقد ساءَتِ الحالَةُ المالِيَّةُ لِلْبِلاد ، نَتِيجَةً لإِسْرافِ الخديوِى إِسْماعيلَ فى الإِنْفاق على مظاهِرِ الفَخْفَخَةِ والأُبَّهَةِ . .

كانَ الخدِيوِى قَدِ اسْتَدَانَ مبالِغَ كَبِيرَةً مِنَ الأَجانب ، فاتَّخَذَ هؤُلَاءِ مِنْ دُيونِهِمْ سَبَبًا لِلتَّدَخُّلِ فى حُكْمِ البِلَاد . .

وهنا ضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وقالَتْ :

- مِثْلُ « مِسْمَارِ جُحَا » !

وضَحِكَ عربى لِكَلامِ عَلْيَاء ، فأَضافَ الجَدُّ بِسُرْعَةٍ وهو يَبْتَسِم :

— على رأى علماء !

لقد باع جحا منزله وترك فيه مسمارا لم يبعه ؛ ليدخل المنزل كلما شاء بحجة المحافظة على حقوقه في ذلك المسمار !

وقدم الأجانب المسمار . . . أقصد قدموا ملايين الجنيهات للخديوى إسماعيل ، ليتدخلوا في حكم البلاد ، بحجة المحافظة على أموالهم التي أقرضوها لحاكمها !

ثم رجع الجد إلى سابق حديثه فقال :

— لم يرض الأفغاني عن هذه الحالة ، وراح ينشر أفكاره بين الشباب والقادة السياسيين .

وكانت أفكار الأفغاني تدور حول ثلاثة مبادئ هامة :

كان ينادى بالعمل من أجل الحرية ،

والتَّخَلُّصِ مِنَ الأَجانِبِ الَّذينَ أَصْبَحَ لَهم وَزِيرَان فى حُكُومَةِ مِصْر ! !

كما كانَ يُطَالِبُ الخِديوى بالعَدْل فى أَحْكَامِه ، وإشْرَاكِ الشَّعْبِ فى إدارَةِ بِلَادِه . .

ثم يُتَوِّجُ أَفْكَارَه بالدَّعْوَةِ إلى وَحْدَةِ الشُّعُوبِ العَرَبِيَّةِ ، والإسْلَامِيَّة ؛ لِتَتَمكَّنَ من مُقَاوَمَةِ الدُّوَل الأُورُبِيَّةِ الَّتِى بدأَتْ تُنَفِّذُ خُطَّتَهَا الاسْتِعْمَارِيَّةَ ، لِنَهْبِ ثَرَوَاتِ الأُمَمِ التَّابِعَةِ لِلدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة !

ولَم يَرْجع الخِديوِى إسماعِيلُ عَنْ ظُلْمِ الشَّعْبِ والاسْتِبْدَادِ بالحُكْمِ ، فاشْتَدَّ هُجُومُ الأَفْغانِىِّ عليْهِ ، حتى عُزِلَ عَنْ عَرْشِ مِصْرَ وتولّى مكانَهُ ابْنُهُ «تَوْفِيق» . وكان تَوْفِيقٌ قَدْ وعَدَ السَّيِّدَ جمالَ الدِّينِ باتِّبَاع سياسَة وطَنِيَّة حَكِيمة . .

وبحركةٍ سريعةٍ التفت عربى إلى جدِّه وفى عينيه كثيرٌ من الدهشةِ وعدمِ التصديق !

فضحك الجدُّ وقال :

ـ أنا قلتُ إن توفيقًا كان قد وعد باتِّباعِ سياسةٍ وطنيةٍ حكيمة ، ولم أقل إنه اتَّبعها فعلًا يا عربى ! !

(٤)

قالت علياءُ وهي تنقلُ نظرها بين جدها وابن عمها :

– هل تعني ياجدي أن توفيقاً خدع السيد جمال الدينِ الأفغانيَّ وكذب عليه ؟ حقاً إن اسمه على غير مسمى ! !

فأجابَ الجدُّ مُؤَكِّداً :

– الواقعُ أنَّهُ لم يكُنْ ينوِي أنْ يفي بشيء من وعوده . لكنَّهُ أراد أنْ يكسب تأييدَ الأفغانيِّ إلى أنْ يتولَّى عَرْشَ مِصرَ ويُصبحَ صاحب الأمْر والنَّهْي بها !

وما إنْ تحقَّق له ما أرادَ ، حتَّى غَدَرَ بالسيِّد جمال الدين غَدْراً قبيحاً ، ففي اللَّيْلَة السَّادسة مِنْ شهر رمضانَ سنة ١٨٧٩ ميلاديَّة ، قَبَضَ رجالُ الخديوي على الأفْغَانيِّ وهو عائدٌ إلى بَيْتِهِ ، ونَقَلُوه إلى السويس

حَيْثُ كانَتْ تَنْتَظِرُهُمْ سَفِينَةٌ مُتَّجِهَةٌ إلى الهِنْد !

حتَّى ملابِسهُ لم يَسْمَحُوا لَهُ بأَخْذِهَا مِنْ مَنْزِله ! !

وبَدَا التَّأَثُّرُ على وَجْهِ علْيَاءَ ، فابتَسَمَ الجَدُّ وقال يُخَاطِبُهَا :

- لاتتَأَلَّمِي ياعلْيَاءُ ، فالعُظَمَاءُ لايَهْتَمُّونَ كَثِيراً بالأُمورِ الَّتِي تَشْغَلُ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاس . . كالثِّيَابِ والطَّعَامِ والنُّقُود !

لقد كانَ اهْتِمَامُ الأَفْغَانِي بِحُرِّيَّةِ الشُّعُوبِ العَرَبِيَّةِ والإِسْلَامِيَّة ، ووَحْدَتِهَا ، يَشْغَلُهُ عَنِ الطَّعام . . إلى دَرَجَةِ أَنَّهُ لم يَكُنْ يتناوَلُ مِنْهُ غَيْرَ وَجْبَةٍ واحِدَةٍ فى اليَوْمِ !

وعندما طَرَدَهُ تَوفِيقٌ مِن مِصْرَ لم يَكُنْ يَملِكُ أَيَّ قَدْرٍ مِنْ المال ، فقَدَّمَ له مُمَثِّلُ إحدى الدّولِ بَعْضَ النُّقُود . . غَيْرَ أَنَّهُ قالَ وهو يَرُدُّ النُّقُودَ لِمَنْ قَدَّمَهَا إِلَيْه :



المَنْبَعُ الرُّوحي والفِكْري للثَّوْرة !

احْفَظُوا المالَ فأَنْتُمْ أَحْوَجُ إلَيْه ! !

* * *

حانَ موعِدُ الدواءِ ، فقدَّمَتْهُ علْيَاءُ لِجَدِّها . . ثُمَّ رَجَعَتْ إلى مَجْلسِهَا وهى تَبْتَسِمُ وتقُول :

ـ تَرَكْنَا الأَفْغَانيَّ فى طريقِهِ إلى الهِنْدِ ياجَدِّى ، فَهَلْ سَمَحَ لَهُ الإنجليزُ بالبَقَاءِ فيها هَذِهِ المرَّة ؟ !

فأَسْرَعَ الجَدُّ يُوَضِّحُ لها الأَمْرَ :

ـ فى عام ١٨٦٩ كان الإنْجِلِيز يخْشَوْنَ ـ إذَا هُمْ تركُوه يُقِيمُ بالهنْدِ ـ أَن يُشْعِلَ فيها الثَّوْرَةَ علَى جيُوشِهِم. لَكِنَّهُمْ فى عامِ ١٨٧٩ كانوا قد قَضَوْا علَى المقَاوَمَة بالْهِنْد ، وبَدَءُوا يَسْتَعِدُّونَ لاحْتِلَالِ وادى النِّيل ، فحَجَزُوا الأَفْغَانيَّ بها حتى يُبْعِدُوهُ عن مِصْر ! !

ثم أَضافَ الجَدُّ وفى صَوْتِهِ نَبْرَةُ الأَسَفِ :

ـ وهكذا لَمْ يَشْهَدِ الأَفْغَانِيُّ « ثَوْرَةَ عرابِى » الَّتِى

حُرِمَتْ من تَوْجِيهَاتِهِ . . فلمَّا تمكَّنَتْ إنْجِلْترا بخيانَة توفيقٍ من القضاءِ على جيْشِ مصْر وتخلَّصت مِنْ عرابي سَمَحتْ للأفْغاني بالرَّحيل إلى «باريس» عام ١٨٨٣ . وفى باريس أقام ثَلاثَ سَنوات ، وأصْدرَ جريدةَ «العُرْوَةِ الوُثْقى» لِتَكُونَ مِنبرًا للدِّفاع عن بلاد الشَّرْق والإسْلام . .

وتناول الجدُّ أحَدَ الكُتُب الموضُوعة بجانبه وراح يُقَلِّبُ صفحَاته حتى عثَرَ على ما كان يُريدُ ، فقال :

- ولقد كانت دَعْوَةُ السَّيِّدِ جمال الدِّين الأفْغانيّ إلى الجِهَادِ . فى سَبيلِ الحُرِّيَّةِ والاسْتِقْلال ، دَعْوَةً عامَّةً يُوجِّهها إلى أبناءِ الشَّرْقِ جميعًا ، لا يُفَرِّقُ بين مُسْلِمٍ ومَسيحى . . وهاهى كَلِماتُهُ المَنْشُورَة بجَريدَةِ العُرْوَةِ الوُثْقى تُؤكِّدُ ذلك :

« لايَظُنَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ جَرِيدَتَنَا هَذِهِ بتَخْصِيصِهَا المُسْلِمِينَ بالذِّكْرِ أَحْيَانًا ، ومُدَافَعَتِهَا عَنْ حقُوقِهِمْ ، تَقْصِدُ الشِّقَاقَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَن يُجَاوِرُهُمْ فى أَوطانِهِمْ ، ويَتَّفِقُ مَعَهُمْ فى مَصالِحِ بِلادِهِمْ ، ويُشَارِكُهُمْ فى المنافِعِ من أَجْيالٍ طَوِيلَةٍ .. فلَيْسَ هذا مِنْ شَأْنِنَا ، ولا مِمَّا يُبِيحُهُ دِينُنَا ، ولا تَسْمَحُ به شَرِيعَتُنَا . ولَكِنَّ الغَرَضَ تَحْذِيرُ الشَّرْقِيِّينَ عُمُومًا ، والمُسْلِمِينَ خُصُوصًا ، مِنْ تَطَاوُلِ الأَجانِبِ عَلَيْهِمْ والإفْسَادِ فى بلادِهِم . وقد نَخُصُّ المُسْلِمِينَ بالخطَابِ ، لأَنَّهُمُ العُنْصُرُ الغالِبُ فى الأَقْطَارِ الَّتِى غَدَرَ بها الأَجْنَبِيُّونَ ، وأَذَلُّوا أَهْلَهَا أَجْمَعِين ، واسْتَأْثَرُوا بِجَمِيعِ خَيْرَاتِها ! ! » ..

قال عرَبِى وهو يُراجِعُ أوراقَه :

– إنَّ مَنْ يُطَالِعُ المُلَخَّصَ الَّذِى كَتَبْتُه ، سَوْفَ يَعْتَقِدُ أنَّ الأَفْغانِىَّ قَضَى حياتَهُ مُسافِراً من بَلَدٍ إلى بَلَد . . فقد سافَرَ إلى الحِجَازِ والهِنْدِ وتُرْكِيَا وفَرَنْسَا وإيرَان !

عِنْدَئِذٍ ضَحِكَ الجَدُّ وقال :

– وسافَرَ إلى إنْجِلْترا ورُوسْيَا أَيْضًا !

وسأَلَتْ عَلْيَاءُ :

– ولَكِنْ كَيْفَ كان يَتَفَاهَمُ مع أَهْلِ تِلْكَ البِلَادِ ، ولُغَاتُهُمْ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَة ؟

فأَجابَهَا الجَدُّ وهو يَبْتَسِم :

– لقد كان السَّيِّدُ جمالُ الدِّينِ يتكَلَّمُ اللُّغَاتِ الأَفْغانِيَّةَ والفارِسِيَّةَ والعرَبِيةَ والتُّرْكِيَّةَ والفِرَنْسِيَّة ،

كما كان يَعرِفُ اللُّغتينِ الإنجليزيَّةَ والرُّوسيَّةَ بعضَ المَعْرِفة . .

ووضعتْ علياءُ يدَها على فمِها فى دهْشَة صامِتَة .

نضَحِكَ عربِى وضَحِكَ الجدُّ لِحركتِها المُعبِّرة !

ثم سأَلَ عربِى :

ـ ولكنْ ماذا فعَل فى إيرانَ ورُوسْيا وإنْجلْترا ؟

صمتَ الجدُّ قليلًا قبْلَ أَن يلْتفِتَ إلى عربِى وهو يبْتسِمُ ويقُول :

ـ وماذا يُمْكِنُ أَنْ يفْعلَ الأَفْغانِىُّ فى أىِّ مكانٍ يذهبُ إليهْ ؟ !

فى إيرانَ ، كان الشَّاه قد دعاهُ وولَّاهُ وِزارةَ الحرْبيَّة .

و أرادَ الأفْغانىُّ أَن يُقنِعَ الشَّاه بالمُوافقةِ على دُسْتُور يَحْفَظُ حُقُوقَ الشَّعبِ ، لكنَّ الشَّاه احْتَجَّ قائلًا :

أَيَصِحُّ أَنْ أَكونَ ياحَضْرةَ السَّيِّدِ وأنا مَلِكُ مُلُوك الفُرْس . . كأَحَد أَوْلَادِ الفلَّاحِين ؟ !

وكان جوابُ الأَفْغَانِيِّ على الفَوْرِ : الفلَّاحُ والعامِل والصَّانِعُ فى المَمْلَكَةِ ياحضْرَةَ الشَّاه أَنْفَعُ مِنْ عظَمَتِكَ وَمِنْ أُمرائِك ! !

وانْتَهَى الأَمْرُ بأَن أَرْسَلَ الشَّاهُ خَمْسمائةِ فارِسٍ ، قَبَضُوا علَى الأَفْغَانِيِّ وهو مَرِيضٌ وطرَدُوهُ مِن البِلَاد !

وفى رُوسْيَا ، عاتَبَهُ القَيْصَرُ على مَوْقِفِهِ مِن الشَّاه . . فردَّ عَلَيْهِ قائِلًا : أَعْتَقِدُ أَنَّهُ خَيْرٌ لِعَرْشِ المَلِكِ أَنْ يكُونَ مَلايِينُ الرَّعِيَّةِ أَصْدِقَاءَ لَهُ ، لا أَنْ يكُونُوا أَعْدَاءَه !

أَمَّا فى إنجلترا ، فقد عَرَضُوا علَيْهِ عَرْشَ السُّودَان ، الذى احتلُّوه بعد أَنِ احتلُّوا مصر . . فما كانَ مِنْهُ إلَّا أَنْ صاحَ غاضِبًا : هل تَمْلِكُونَهُ حتَّى تُمَلِّكُونِى عَلَيْه ؟ !

وأَغْمَضَ الجَدُّ عَيْنَيْه لحَظَاتٍ ثم أَضاف :

ـ وأخيرًا استقرَّ السيِّدُ جمالُ الدِّينِ الأفغانِيُّ ، أبو الإصْلاحِ ، فى تُرْكيا ، ابتداءً مِنْ عامِ ١٨٩٢ . وعاش بها يَدْعُو إلى الإصْلاحِ الدِّينِيِّ والسِّياسِيِّ ، لَـكِنَّ السُّلْطَانَ خافَ مِنْ تأثِيرِهِ علَى الشَّعْبِ فحَرَّمَ عَلَيْهِ مُغَادَرَةَ مَسْكَنِهِ أوِ اسْتِقْبَالَ النَّاسِ إلى أنْ تُوُفِّيَ عامَ ١٨٩٧ ..

وقال عرَبِى وصَوْتُهُ يَنْطِقُ بالاعْتِذَار :

ـ سُؤَالٌ أخيرٌ ياجَدِّى ثم نَتْرُكُكَ تَسْتَرِيح .. لِمَاذَا أَطْلَقْتَ علَى الأفْغَانِيِّ لَقَبَ « أَبِى الإصْلَاح » ؟

فبَدَأَ الانْفِعَالُ علَى الجَدِّ وهو يُجِيبُ بسرْعَة :

ـ تَسْأَلُنِى لماذا ؟ ! لأنَّهُ أبو الإصْلَاحِ ياعرَبِى ! ! فى مِصْرَ ، كانَتْ آراؤُهُ وأفْكَارُهُ المَنْبَعَ الرُّوحِيَّ والفِكْرِيَّ للثَّوْرَةِ العرابِيَّة !

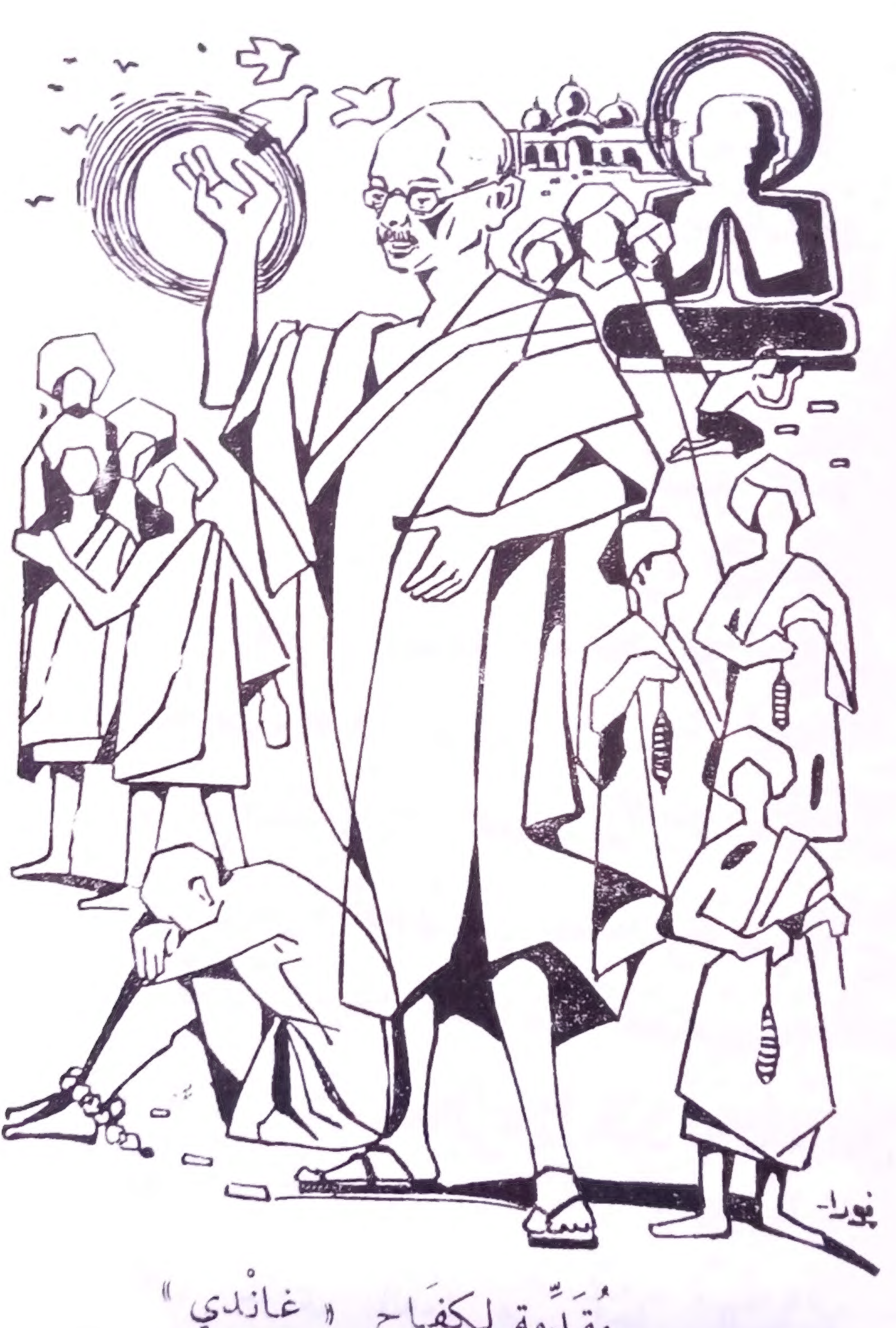
وفى إيرانَ ، كانَتْ تعاليمهُ سبَبًا فى نهضةِ الشَّعْب عامَ ١٨٩٦ ثم إعْلَانِ الدُّسْتُورِ عامَ ١٩٠٦ !

وفى تُرْكِيَا ، كان لِجِهَادِهِ أثَرٌ كبيرٌ فى المُحَاولَاتِ الكَثِيرَةِ الَّتِى قامَ بها الأَحْرَارُ .. حتى فازَتِ البلادُ عام ١٩٠٨ بدُسْتُورٍ يُنَظِّمُ العلَاقَةَ بينَ الحَاكِمِ والمَحْكُوم!

وَنَهَضَتْ علْيَاءُ تستَأْذِنُ فى الانْصرَافِ وتَشْكُرُ الجَدَّ على كُلِّ ماقدَّمَ لَهُمَا من مَعْلُومات ، فابْتَسَمَ الجَدُّ وقال :

ـ حَسَنًا ،ولَكِنْ قَبْلَ أنْ تَنْصرِفِى أنْتِ وعَرَبِى ، إلَيْكُمَا هذهِ العِبَارَةَ من أقْوالِ المُصلحِ العظِيم :

« خَيْرُ لَوْنٍ لِرايَةِ الاسْتِقْلَالِ دِمَاءُ المُجاهدين الأَبْطَال ! » ..



... مُقَدِّمة لِكِفَاح « غانْدِي »

يَتكَامَلُ غِذَاؤُه الذى يَجْعَلُ مِنه نَموذجاً للمُواطنِ الرَّشيدِ السَّعيدِ » ..

* * *

التفتَ عَربِى إلى علياءَ فرآهَا مُصْغيةً باهتمامٍ ، تَنتَظِرُ أَن يتلُوَ عليهافقَراتٍ أُخْرَى من أَدَبِ محمُود تَيْمُور ..

فَضَحِكَ وقال :

- لا ياعلياء !

إذا شِئْتِ الاستِزادَةَ من أَدبِ محمُود تَيْمُور فى الرحلاتِ وغَيْرِ الرِّحلاَتِ ، فَعَلَيْكِ أَن تَبْذُلِى بَعَضَ الجَهدِ وتُطالِعِى كُتُبَه !

إِنَنى لا أَستَطيعُ أَن أُلَخِّصَ لَكِ كَلَّ مَا هُو رَائعٌ من مُؤلَّفاتِ أَدِيبِنَا الإِنْسَانِ ، الذى عَاشَ ثمَانِين عاماً قَضى الجُزْءَ الأَكْبرَ مِنهاَ يُسَطِّرُ الكَلِمَةَ الطيِّبَةَ المُفِيدَةَ الفَنَّانَةَ ..